

أبو الحسن السعيد.. الموحدون يسترجعون بعض قوتهم قبل الانهيار التام

كتبه عائد عميرة | 9 أكتوبر, 2024



تمتع الخليفة الموحد العاشر الرشيد كأبيه الخليفة المأمون، بمجموعة من الخصال القوية اللامعة، من الذكاء والجرأة وقوة العزم وبُعد النظر، وحاول خلال فترة حكمه التي امتدت إلى نحو عقد من الزمن، إعادة تثبيت عرش الموحدين الذي تزعزع نتيجة الصراع عليه وضربات المتربصين بالدولة من كل جهة، إلا أن الظروف السيئة التي جاء فيها كانت أقوى منه.

مع ذلك، استطاع تقوية الدولة من الناحية المعنوية، وعقد مصالحة مع بقية الزعماء الموحدين بعد أن بطش بهم أبوه ومرقّ شملهم، وكان مقابل ذلك اضطراره إعادة تراث الأب الروحي لدولة الموحد محمد بن تومرت، والعمل بتقليده.

مسك أبو الحسن علي السعيد بن المأمون زمام دولة الموحدين من بعده، فحاول مواصلة مسيرته، وتمكّن لبعض الوقت من استرداد قوة دولته التي أشرفت على نهايتها، وصمد أمام هجمات بني مرين المتوالية، إلا أن مقتله كان إيذاناً ببداية انهيار الدولة.

سنخصّص هذا التقرير ضمن ملف "نهضة الموحدين" للحديث أكثر عن عهد الخليفة الموحد

الحادي عشر، وحروبه المتواصلة مع بني مرين وجهوده للتصدي لزعهم نحو عاصمة الحكم مراكش، فضلاً عن الاضطرابات التي شهدتها فترة حكمه التي لم تتجاوز 4 سنوات، وأبرزها انفصال بني زيان عن مراكش.

ال خليفة الحادي عشر

توفي الخليفة أبو محمد الرشيد عبد الواحد عام 640 هجري، عن عمر ناهز 24 عامًا، وترك وراءه دولة متفككة، فاتجه أكابر الدولة وأشياخ الموحدين إلى اختيار ولد الخليفة المتوفى الصبي، فاعترض بعضهم على ذلك بعد أن سئموا خلافة الصغار.

في الأثناء بايع أبو محمد بن وانودين كبير أشياخ الموحدين أبو الحسن علي بن أبي العلاء إدريس بن يعقوب المنصور، وأقعه في مجلس **الخلافة**، فتابع في أثره القرابة والأشياخ وبايعوه، وبذلك تم اختياره لكرسي عرش الموحدين، وتلقب بالمعتضد بالله كعادة الخلفاء الموحدين الذين سبقوه في الحكم.

عُرف عن الخليفة الجديد قوة شخصيته وعزمه الكبير وسطوته، فضلاً عن ذكائه وحنكته العسكرية والسياسية، وهو ما يريده الموحّدون في هذا الظرف العصيب الذي تمرّ بهم دولتهم والأخطار المحدقة بها من كل جانب.

وما أن جلس على كرسي الحكم، حتى سارع الخليفة بسجن مجموعة من أشياخ الموحدين المعارضين لبيعتة ومصادرة أموالهم، كما سجن أمّ أخيه الرشيد حباة الرومية وعزّمها أموالاً، وذلك حتى لا تحرّض أبناءها على الثورة ضده.

رتب الخليفة قصر الحكم، ثم عمل على التقرب من عرب الخلط وغيرهم من زعماء المنطقة، وأغدق عليهم الهدايا والعطايا حتى يتقي شرّهم، كما اعتنى بأمر الجنود النصارى الذين جلبهم الخليفة الأسبق إدريس المأمون.

وأول اختبار فعلي للخليفة كان في سجلماسة، حيث خرج عنه واليها عبد الله بن زكريا الهزرجي ودعا إلى أمير الحفصيين، فسير إليه السعيد جنده وتمكّن من القضاء عليه وإعادة المدينة للحكم الموحد، وكان ذلك إنذاراً شديداً للهجة لخصوم الخليفة.

استقلال بني زيان في الجزائر

رغم هذه البداية القوية للخليفة أبو حسن السعيد ومحاولاته المستميتة لإصلاح الوضع، إلا أن الأمور خرجت عن سيطرته في الشرق، حيث استغل بنو زيان ضعف حكم الموحدين، وأعلنوا استقلالهم رسمياً عن الخلافة الموحدية بعد سنوات من تبعية صورية لها، وتأسيس دولتهم الفتية

يرجع أصل **بنو زيان**، أو كما يُطلق عليهم أيضًا بنو عبد الواد، إلى قبيلة زناتة، وهي إحدى أكبر القبائل العرقية ذات الأصول الأمازيغية التي سكنت بلاد المغرب، وأصل تسميتهم عائد إلى جدّهم عبد الواد، وهم من ولد يادين بن محمد بن رزجيك بن أسين بن ورسيك بن زناتة.

أمسك بنو زيان بزمام الأمور في مدينة تلمسان الجزائرية فعليًا سنة 633 هجري، مستغلين حالة التخبط والصراع على الحكم في الإقليم تلمسان، ورغبة الموحدين في تصفية كبار القبيلة لإضعاف قوتها وإخضاعها لدولتهم، فمكّنهم الخليفة الرشيد من ولايتها، وأبقوا على الدعاء له في الخطبة وذكر اسمه في السكة.

ويُعتبر يغمراسن بن زيان أول حكام الزيانيين، ووصل إلى سدّة الحكم على الإقليم بعد أن كتب إليه الخيفة الموحد عبد الواحد الرشيد بن المأمون بالعهد بتولي الحكم على ولاية المغرب الأوسط، وعاصمتها تلمسان.

وشملت حدود الدولة الزيانية إقليم المغرب الأوسط (أو شمال غرب الجزائر حاليًا)، إلا أن هذه الحدود لم تكن ثابتة، وبقيت في مدّ وجزر بسبب هجمات بني مرين غربًا وبني حفص شرقًا، وكانت لا تتجاوز في بعض عهودها أسوار العاصمة تلمسان.

طوّر بنو مرين الزراعة واعتنوا بالصناعة، وخاصة منها صناعة السفن التجارية والبحرية، فضلًا عن صناعة الأدوية والنسيج، كما ازدهرت التجارة في المنطقة في عهدهم، وأحيوا النشاط العلمي والفكري في البلاد واهتموا ببناء المساجد والمدارس، فكانت همزة وصل بين دول أوروبا وأقطار ما وراء الصحراء الأفريقية، وملتقى طلاب العلم من مختلف الأقطار.

مواجهة بني مرين

فضلاً عن بني زيان، استفحل في أيام أبو الحسن السعيد أمر بني مرين، فسير إليهم سنة 642 هجري جيشًا ضخمًا لقتالهم، فنشبت بين الموحدين وبني مرين معركة عظيمة، هُزم فيها بنو مرين وقتل زعيمهم **أبو معرّف محمد بن عبد الحق**، وكانت ضربة شديدة هدّت من عزائم بني مرين لبعض الوقت.

من ثم رأى الخليفة الموحد أن يعقد هدنة مع بني مرين، يُريح بها جيش الموحدين ويرتب خلالها الأوضاع، ذلك أن بني مرين يفوقونهم عددًا وعدّة، وانتشروا في الأرض وحكموا مناطق كثيرة وطوّقوا عاصمة الحكم.

لم تدم هذه الهدنة طويلًا، فبني مرين يواصلون الزحف والسيطرة على المدن والقلع، وأمام خشيته على ملكه خرج الخليفة إليهم مجددًا وكان ذلك سنة 643 هجري، فيما جمع له أميرهم الجديد

أبو بكر بن عبد الحق جموع زناته لقتاله، لكن السعيد اضطر الرجوع.

رجع سعيد عن حربه ضد بني مرين بعد خيانة **كانون بن جرمون** له، حيث تخلف هذا الأخير عن جيش الخليفة الموحي وتوجّه إلى آزمور واستولى عليها، وتمكّن الخليفة الموحي من القضاء على تمرد بن جرمون -حليف بني مرين الجديد- وعاد إلى مراكش.

في الأثناء لم يتوقف بنو مرين عن التضييق على الموحيين، إذ تقدم زعيمهم إلى مدينة مكناس فضايقتها، فقتل أهلها الوالي الموحي وخلعوا بيعة الرشيد، وحولوا دعوتهم إلى الأمير أبي زكريا الحفصي صاحب أفريقية (في ذلك الوقت كان بني مرين يدعون أيضًا للحفصيين).

مصرع الخليفة الرشيد

إعلان أهل مكناس البيعة لأمر الحفصيين ومن قبلهم بني مرين، زاد من غضب الخليفة الموحي وخشيته على حكمه، خاصة أن أهل إشبيلية وأهل سبتة بعثوا بطاعتهم أيضًا للأمير **أبو زكريا الحفصي**، وبعث أبو علي بن خلاص صاحب سبتة إليه بهدية.

تنامي عظمة أمير الحفصيين أبي زكريا، دفع الخليفة الموحي إلى جمع جيشه قصد مواجهة حلفائه المحيطين بمراكش، ذلك أن ركونه في قصر الحكم سيعجل بزوال ملكه واندثار دولته إلى الأبد، فالخطر المحدق بما تبقى من الدولة الموحدية كبير.

يُذكر أنه في ذلك الوقت لم يتبقّ تحت ملك الموحيين إلا جزء يسير من دولتهم، فابن أبو حفص اقتطع أفريقيا، ويغمراسن بن زيان اقتطع تلمسان، وابن هود اقتطع جزءًا من الأندلس، وما تبقي اقتطعه ابن الأحمر، فيما تملك بنو مرين ضواحي مراكش وأغلب مدن المغرب الأقصى.

نهض الخليفة الموحي من مراكش سنة 645 هجري وقصد مواجهة الثائرين عليه، وكانت خطته تقضي بالتوجّه أولاً إلى مكناس وبني مرين، ثم تلمسان ويغمراسن، وبعدها التوجّه إلى أفريقيا وابن أبي حفص.

أمام عظمة الجيش الموحي، انسحب زعيم بني مرين أبو بكر بن عبد الحق من مكناس، وخرج الأهالي يطلبون العفو بعد أن قتلوا فيما سبق الوالي الموحي، فعفا عنهم الخليفة وأعطاهم الأمان على ألا يُعاد صنيعهم مرة أخرى.

وما يسجل للخليفة أبو الحسن السعيد أنه دفع زعيم بني مرين لطلب العفو منه والسماح له في الانضواء تحت رايته والدعوة له، وأمّد أبو بكر بن عبد الحق الخليفة الموحي بأكثر من 500 مقاتل من بني مرين لمعاذته في حربه ضدّ حاكم تلمسان الزياني.

أنت بيعة بني مرين للخليفة الموحي وهو في مدينة فاس، ويوم 14 محرم من سنة 646 هجري

ارتحل الخليفة من فاس يريد مدينة تلمسان التي يسيطر عليها يغمراسن بن زيان، وحاول هذا الأخير عقد صلح مع الموحدين بطريقة غير مباشرة، إلا أن الخليفة أبي إلا أن يأتي إليه يغمراسن مباشرة، وهو ما لم يحصل.

بالنظر إلى قوة الجيوش، كانت الغلبة تتجه للجيش الموحد، إلا أن مشيئة الله كان أقوى، فبينما يتفقد الخليفة الموحد أبو الحسن السعيد جيشه حتى خلا به جمع من أنصار يغمراسن وقاموا بقتله دون جيشه (آخر صفر سنة 646 هجري)، ولما سمع من معه بما حصل للخليفة حلت الفوضى بينهم، واستغلّ بنو عبد الواد الأمر وانقضوا على الجيش، وقبل ذلك كانوا يرومون الصلح والانضواء تحت لواء الموحدين مجددًا.

استطاع الخليفة أبو الحسن السعيد أن ينهض خلال سنوات حكمه الأربعة بالدولة الموحدية، ويعيد إليها بعض إشعاعها، ويجبر بني مرين على الولاء والطاعة له، ويتمكن من صدّ عديد الفتن المحيطة بالموحدين، وكاد أن يعيد أفريقيا إلى ملك الموحدين، إلا أن وفاته كانت ضربة قاتلة للدولة.

رابط المقال : [/https://www.noonpost.com/242218](https://www.noonpost.com/242218)